بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة التغابن

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

هذه هي بداية سورة التغابن المدنية، التي تركز علىٰ تعريف الناس بحقيقة الإيمان، وتوجه إلىٰ أمور ينبغي أن يعيها ويطبقها المؤمنون.

والآية تفيد: أن كل ما في الكون يسبح تنزيهاً لله تعالىٰ الذي ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومَن كان كذلك: يجب الإيمان به سبحانه. **وأنه:**

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾

أي: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ﴾ مَن أحب الكفر وكفر، فهو ﴿كَافِرٌ﴾ ضال، ﴿وَمِنكُم﴾ مَن أحب الإيمان وآمن، فهو ﴿مُّؤْمِنٌ﴾ مهتد، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وتختارون من الكفر أو الإيمان ﴿بَصِيرٌ﴾ وسيحاسبكم علىٰ هذا الاختيار، والفعل المترتب عليه.

ومَن كان كذلك: يجب الإيمان به سبحانه، كما أنه سبحانه:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾

نعم خلق سبحانه السمٰوات والأرض بالحكمة البالغة ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ بقدرته في

أحسن صورة وأكملها وأبدعها، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فأحسنوا أعمالكم وسرائركم، كما أحسن صوركم!!

ومَن كان كذلك: يجب الإيمان به سبحانه.

كما أنه تبارك وتعالىٰ:

﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾

نلاحظ أنّ كل واحدة من هذه الثلاث في الآية: أدق وأخص مما قبلها، وذكرها رب العزة كلها: للإشارة إلىٰ أن علمه سبحانه محيط بكل صغيرة وكبيرة، ولا يغيب عنه شيء أبدًا.

وبعد هذا التقرير، يوبخ الله البشر علىٰ تقاعسهم عن الإيمان، وواجباته، إذْ يقول الحق سبحانه:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾

يعني ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ وتعلموا يا كفار مكة، ويا كفار العالم ﴿نَبَؤُا۟﴾ خبر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿مِن قَبْلُ﴾ وما حدث لهم عندما أصروا علىٰ كفرهم؟

﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ عاقبة كفرهم في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فوق هذا، ﴿ذَٰلِكَ﴾ العقاب والعذاب ﴿بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ من الله ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدلائل الواضحات يدعونهم إلىٰ الإيمان بالله ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ أي: أهل الكفر ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ واستكبروا عليهم، ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ بالرسل ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ أعرضوا عن الإيمان، ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ عنهم ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن جميع خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ وإن لم يحمده أحد.

وبعد هذا الكفر بالرسل، والإعراض عن الإيمان:

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾

يبيِّن ربنا عز وجل عن الكافرين أنهم ينكرون البعث، والحساب، ثم يقول لحبيبه: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿بَلَىٰ﴾ تبعثون ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ وتحاسبون، ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ﴾ من الجليل والحقير، والصغير والكبير ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وعلىٰ ذلك:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾

أي: ما دمتم ستبعثون، وتحاسبون ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ تعالىٰ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ﴾ معه لهدايتكم، وهو القرآن، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ حيث لا تخفىٰ عليه من أعمالكم خافية، وسيحاسبكم، وسيجازيكم.

تقولون: متىٰ؟

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

نعم ﴿يَوْمَ﴾ القيامة ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ الله جميعًا ﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ﴾ الذي يجمع فيه الأولين والآخرين كلهم في صعيد واحد، ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم هو ﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ الذي يغبن فيه المؤمنون الكافرين، حيث ربح المؤمنون الجنة، وخسرها الكافرون، ﴿و﴾ هكذا ﴿مَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، ﴿و﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وعاندوا رسلنا، فَـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وبئست النار مرجعاً ومستقراً لأهل الكفر والضلال.

وبعد أن عرَّفتنا السورة إخباراً عن الله عز وجل، وضرورة الإيمان به، تبيِّن لنا أن كل ما يقع لنا ويحدث هو بأمر الله تعالىٰ، حيث تقول الآية:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

أي: ﴿مَآ أَصَابَ﴾ المرء، ووقع له ﴿مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ بمرض، أو شدة، أو فقد عزيز، أو ضياع مال ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ بعلمه وتقديره، ومشيئته، ﴿و﴾ أنه ﴿مَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ ويُقرُّ أن المصيبة بقضائه، ويرضى بها ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ للصبر عليها، والثواب بسببها، وإلى كل خير، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فآمنوا به، وسلِّموا إليه كل أموركم.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾

يعني ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أوامره ونواهيه، وتطبيق شرعه ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ بطاعة شخصه في حياته، واتباع سنته بعد وفاته، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن هذه الطاعة: فلا ضرر إلَّا عليكم ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وقد أدَّاه.

يا محمد، ويا كل داع إلىٰ الله!!

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

نعم ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ عليه التوكل في كل الأمور ﴿و﴾ لذلك ﴿عَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لا علىٰ غيره، ويعتمدون عليه لا علىٰ غيره.

وفي هذا تشجيع للرسول علىٰ البلاغ، وللدعاة علىٰ نشر هذه الدعوة.

وبعد هذا التوضيح للإيمان، والدعوة إليه؛ الموجهة إلىٰ جميع البشر!! يحذِّر الله المؤمنين من بعض العقبات التي تكون في طريق الإيمان، فيقول الحق سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ انتبهوا، حيث ﴿إِنَّ مِنۡ﴾ أي: بعض ﴿أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ مَن يكون ﴿عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ ولكن كيف يكون ذلك؟

يكون بالانشغال به عن طاعة الله والعمل الصالح، أو طاعته في عدم الإنفاق في سبيل الله، أو عدم صلة الأرحام مثلًا.. إلخ لذلك يقول الحكيم الخبير: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ على دينكم، ولا تجعلونهم يضلونكم عن الطريق الصواب، أو يُحبِّونكم في الدنيا ويُنسونكم الآخرة، أو يشجعونكم على الفساد والحرام، ﴿و﴾ لو أنهم حالوا: فما دوركم؟ يقول ربنا ﴿إِن تَعۡفُواْ﴾ عنهم ﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾ فلا توبِّخوهم ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ فتستروا ذنوبهم ولا تفضحونهم: فهو أولىٰ؛ لعلهم يهتدون، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ لو فعلتم ذلك؛ مرضاة له، ودعوة لهم ﴿غَفُورٞ﴾ لذنوبكم أنتم ﴿رَّحِيمٞ﴾ بكم يكفِّر عنكم سيئاتكم.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِتۡنَةٞ﴾ لكم، وابتلاء واختبار من الله تعالى؛ ليعلم مَن يطيعه ممن يكون له عاصيًا، ﴿و﴾ اعلموا أن ﴿ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ من منافع الأموال والأولاد، التي تلهيكم عن طاعته فانتبهوا!! **وعلىٰ ذلك:**

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ باتباع أوامره، واجتناب نواهيه ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي: جهدكم، وقدر طاقتكم، ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ ما توعظون به سماع تدبر، ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ فيما تؤمرون به، وتنهون عنه، ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ في الطاعة ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ من الأموال والأولاد، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ بعدم البخل بالزكاة، والصدقات الواجبة، والإنفاق في الطاعات ووجوه الخير ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون برضوان الله.

ثم يشجع ربنا عز وجل على هذا الإنفاق، فيقول جل وعلا:

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضٗا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾

يا أيها الذين آمنوا: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: تنفقوا في سبيل الله ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ نفقة طيبةً عن طيب خاطر، ورضىٰ نفس: ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ ثوابًا وجزاءً، الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم أيضًا، ﴿وَٱللَّهُ﴾ عز وجل ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل القليل، ويجزي عليه بالكثير العظيم ﴿حَلِيمٌ﴾ يقبل التوب ويغفر الذنب.

خاصة أنه سبحانه: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: عالم ما استقر في القلوب ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما ظهر، ورأته العيون، وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه سبحانه.

* * *

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الطلاق

وهي سورة مدنية، يبيِّن الله عز وجل فيها بعض أحكام الطلاق، ويقدِّر فيها سبحانه أحكام الآثار الناتجة منه، المترتبة عليه. وهي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾

الخطاب للنبي ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ قل لأمتك ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ يعني أردتم طلاق ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ المدخول بهن، واللاتي يحضن ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ مستقبلات ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وعدتهن؛ بأن يكون هذا الطلاق في طهر ليس فيه جماع، وكان ذلك: لتستقبل المرأة عدتها بأخصر وقت، وليكون طلاق زوجها لها وهو في كامل إدراكه وتفكيره ووعيه ويقول ربنا جل وعلا: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: احفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق؛ ليتم معرفة بدء مدة العدة ونهايتها، فيراجعها قبل انتهاء العدة، أو يفارقها بعد انتهائها بالمعروف.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطبيق هذه الأحكام بدقة ووعي وإحسان، بحيث ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: بيوت الزوجية، طردًا لهن، أو غضبًا منهن، ولا حتىٰ بالإذن لهن، إذْ العدة حق الله، ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ كذلك بأنفسهن إن أردن ذلك ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ بالفعل كالزنا، أو بالقول كإيذاء

أهل الزوج، فتخرج لإقامة الحد عليها، أو وقاية لأهل الزوج منها، ﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: تشريعاته، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ فلا يلتزم بها، أو يتجاوز في تنفيذها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾؛ لأنَّه عرَّضها للعقوبة الإلٰهية في الدنيا والآخرة، وقد كان الحكم بعدم خروج المرأة من منزل الزوجية خلال فترة العدة؛ حيث إنك أيها المطلق ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ من الندم على الطلاق، فتكون المراجعة؛ فتستمر الحياة الزوجية.

فإذا ما اقتربت مدة العدة من نهايتها، فإنه تعالىٰ يقول:

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾

أي: فإذا بلغت المعتدة وقاربت نهاية عدتها فعلى الزوج: إما الإمساك عليها بالمعروف ومراجعتها؛ لتستمر الحياة بينهما بإحسان، وإما الفراق بينهما بالمعروف، دون ضرر، أو إيذاء، ﴿وَأَشْهِدُوا۟﴾ على الفراق أو الإمساك ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ صيانة للحقوق، ومراعاة للعدالة والسلامة، ثم يقول تعالىٰ للشهود:

﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ أي: أدُّوا هذه ﴿ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ بالعدل خالصة ﴿لِلَّهِ﴾ وليست محاباة لأي واحد من الطرفين، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحكم أيها المؤمنون ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ ويلتزم بتطبيقه ﴿مَن كَانَ﴾ منكم ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ فيعمل بشرعه ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فيتقي غضب الله فيه، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فيطلق على هذا الوجه المشروع المذكور، ولا يُخرج امرأته عند الطلاق من بيت الزوجية، ويشهد على الطلاق ﴿يَجْعَل لَّهُۥ﴾ ربه ﴿مَخْرَجًا﴾ من كل ضيق وهم، ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ من فضله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ولا يتوقع، ولا يخطر بباله.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ من أحد الزوجين أو الزوجين في كل أموره، ويفوض أمره إليه ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ وكافيه، ومتولي أموره، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ في تنفيذ قضائه، وأحكامه، ومشيئته في خلقه بما يشاء، لا رادّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه،

خاصة أنه سبحانه ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ بغاية الحكمة ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ ميقاتًا وقدرًا معلومًا.

هذا، وبعد أن بيَّن الله تعالىٰ عدة المطلقة طلاقًا رجعيًّا إن كانت تحيض، فإنه سبحانه يبيِّن عدة:

١ ـ مَن لا تحيض لكبر، أو لصغر، أو لسبب.

٢ ـ والحامل.

فيقول الحق سبحانه:

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ النساء ﴿ٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ لتقدمهن في السن ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ في عدتهن، أو في دمهن، هل هو حيض أو استحاضة ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ قروء في حق مَن تحيض، ﴿و﴾ كذلك عدة ﴿ٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ لصغر سن، أو لسبب صحي، فعدتهن ثلاثة أشهر، ﴿و﴾ أما ﴿أُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ أي: النساء الحوامل ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ أي: فعدتهن ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولو بعد الطلاق أو الموت بلحظات يسيرة، فاتقوا الله في تنفيذ هذه الأحكام والتشريعات.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾، خاصة وأن ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وحكمه وشرعه، ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ مع رسوله ﷺ، فاتقوا الله في اتباع أحكامه سبحانه وشرعه، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ كرر التقوى لعلمه سبحانه وتعالى أن النساء ناقصات عقل ودين، فلا يصبر على أمورهن إلَّا أهل التقوى.. اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

فإذا ما انتهت العدة، وصار الأمر إلىٰ فراق بالمعروف: كانت أحكام السكن والنفقة للمعتدة، حاملًا أو غير حامل، حيث يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾

ثلاثة أمور مترتبة علىٰ الطلاق: **السكن، والإرضاع، والنفقة.**

بالنسبة للسكن في مدة العدة، يقول تعالىٰ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أي: في مسكن الزوجية نفسه، أو في مسكن آخر ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي: يكون مناسبًا حسب سَعَتِكم وطاقتكم، ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ في موضوع السكن ﴿لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ نكاية.

وبالنسبة للإرضاع، يقول تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ هذا أولًا، ثم ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أولادكم منهن ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ علىٰ هذا الإرضاع. ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم﴾ وبينهن أي: أنفقوا بخصوص أجور هذا الإرضاع ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ لا مغالاة من الأم، ولا تقتير من الأب، ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ اختلفتم في أمر هذا الإرضاع أو أجره، أو امتنعت الأم ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ﴾ امرأة ﴿أُخْرَىٰ﴾ غير الأم، صيانة لحياة الصغير.

وأما بالنسبة للنفقة علىٰ المرأة وعلىٰ الصغير خلال العدة وبعدها، فيقول تعالىٰ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي: كل واحد قدر طاقته، ﴿وَمَن قُدِرَ﴾ ضيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ﴾ رَزَقه ﴿ٱللَّهُ﴾ حيث ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ من رزق، فأنفقوا، ولا تبخلوا ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ بمشيئته سبحانه.

أيها الناس: هذا شرع الله، فالتزموا به ولا تخالفوه، واسمعوا قول الحق تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾

نعم، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وكثير من البلاد ﴿عَتَتْ﴾ عصت، وخرجت ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ وأحكامه وشرعه، ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ فلم تتبع منهجهم ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالمناقشة معها، والإقناع لها ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا﴾ بالهم والغم والقلق ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾، ﴿فَذَاقَتْ﴾ بهذا ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ في الدنيا، ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا﴾ بهذا الشكل ﴿خُسْرًا﴾.

كما أنه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾

أي: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾ عز وجل ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فوق عذاب الدنيا، لذلك: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولا تكونوا مثلهم بل اعملوا بشرعه، واتبعوا رسله، خاصة وأنه ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ وهو القرآن، فلا يليق بكم أن تخالفوه بعد اهتمامه هذا بكم.

وهذا الذكر قد أرسل به:

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾

نعم، ﴿رَّسُولًا﴾ هو محمد ﷺ أرسله ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ في الكتاب المسطور، وهو القرآن، وفي الكون المنظور، وذلك ﴿لِّيُخْرِجَ﴾ بهذه التلاوة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وقد كان، وهو مستمر إلى يوم القيامة، ﴿و﴾ لذلك فإنه ﴿مَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ ويثق في شرعه، ويلتزم بأحكامه ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ يُرضي الله، ويُسعِد العباد، ويُصلح البلاد ﴿يُدْخِلْهُ﴾ سبحانه

﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ويكونون ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ وبهذا يكون ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ أي: قد طيَّب الله رزقهم في الجنة ووسَّعه لهم، لأن نعيمها دائم لا ينقطع.

يا أيها الذين آمنوا: التزموا بشرع الله، ونفِّذوا أحكامه، ولا تخالفوا رسوله؛ لتنالوا رضا ربكم سبحانه، حيث إنه هو:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾

نعم.. هو ﴿ٱللَّهُ﴾ القادر ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ كذلك ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي أمر الله وحكمه ﴿بَيۡنَهُنَّ﴾ وعلىٰ مَن فيهن، وذلك: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فتهابوه، وتخشوا عقابه إن خالفتم أحكامه وتشريعاته، أو أهملتموها، ﴿و﴾ لتعلموا كذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ فتراقبوه في كل أقوالكم وأعمالكم؛ ابتغاء نوال مرضاته، رزقنا الله عفوه ورضاه اللهم آمين.

* * *

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة التحريم

سورة مدنية، وهي تبدأ بقوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾

روي في سبب نزول الآيات الخمس الأُوَل من هذه السورة: أن النبي ﷺ كان يحب شرب العسل، وبالذات عند زوجته أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها.

وأصابت الغيرة زوجتيه حفصة وعائشة رضي الله عنهما، فاتفقا على أن تقول له مَن يدخل عليها منهما بعد شربه العسل: «**إني أجد منك ريحًا غير طيبة**»، حتى لا يشربه عندها بعد ذلك، وحدث أن شرب ﷺ، ثم دخل بعدها على حفصة رضي الله عنها، فقالت له ما سبق وعرفنا.

وأراد ﷺ أن يطيِّب خاطرًا: فحلف لا يشربه مرة أخرى، وطلب منها أن لا تخبر أحدًا بذلك، ولكنها رضي الله عنها أخبرت بعد ذلك عائشة رضي الله عنها، فنزلت هذه الآيات.

وهناك رواية أخرى تفيد أن الذي حرمه النبي ﷺ هي جاريته مارية القبطية، والروايتان صحيحتان، ويبدو أنهما حدثتا في فترات متقاربة، قبل نزول الآيات.

وكل واحد من الرواة ذكر ما وصل إلى علمه على أنه سبب نزول الآيات، كما يقول الإمام الألوسي عليه رحمة الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ خطاب إلٰهي للحبيب ﷺ بصفته نبي، ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ على نفسك ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ من شرب العسل أو وطء الجارية.

﴿تَبْتَغِى﴾ تطلب بذلك ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ وأنت تعلم أنَّ التحليل والتحريم لا

يكون إلَّا لله فقط، علىٰ أية حال، قد غفر الله لك ما فعلت ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

واعلم جيدًا أنه:

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ وشرع ﴿لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ التي حرمتم بها، وذلك بكفارة اليمين، فأطيعوا الله ولا تخالفوا أحكامه ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ يأمركم بما فيه نفعكم وصالحكم، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما يشرعه لكم.

ثم يكون تفصيل الموضوع بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾

﴿و﴾ اذكر وتعلم أيها المؤمن ﴿إِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ ﷺ ﴿إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ وهي السيدة حفصة رضي الله عنها ﴿حَدِيثًا﴾ وهو موضوع تحريم شرب العسل أو وطء الجارية، وطلب منها أن يكون هذا الموضوع سرًّا بينهما، فلا تخبر به أحدًا، ولكنها رضي الله عنها لم تحتفظ بهذا السر، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾ وأخبرت ﴿بِهِۦ﴾ السيدة عائشة رضي الله عنها: عرَّف الله حبيبه ﷺ ما دار بينهما ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بتفاصيله، وهنا: أخبر النبي ﷺ السيدة حفصه رضي الله عنها أنها أفشت السر، ومن أدبه ﷺ أنه ﴿عَرَّفَ﴾ لها مما دار بينهما ﴿بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ فلم يذكره، من باب الستر، وعدم الضغط علىٰ الأعصاب، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ تعجبت؛ حيث لم يخبره أحد منهما، لذلك ﴿قَالَتْ﴾ له ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ وعرَّفك هذا الذي دار بيننا؟ ﴿قَالَ﴾ لها ﷺ: ﴿نَبَّأَنِىَ﴾ ربي ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ سبحانه.

ثم قال تعالىٰ لهما:

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾

هنا دعوة إلىٰ التوبة ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عما حدث منكما من هذا التدبير الذي فعلتماه ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ واستمعت واستجابت ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ لأمر الله، وقَبِل الله توبتكما، ﴿و﴾ أما ﴿إِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ بسبب الغيرة، في إفشاء سره، وعمل ما يسوؤه: فلن يكون لكما أدنىٰ تأثير عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ومع كل هؤلاء ﴿ظَهِيرٌ﴾ له ونصير.

كما أنه إن لم تتوبا، وتتظاهرا عليه:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾

أي: فإنه يطلقكن، و ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾ سبحانه ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ في هذه الحالة ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا﴾ له ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ إذْ لن تَكُنَّ حينئذ من زوجاته «**أمهات المؤمنين**»، وهؤلاء الزوجات الجديدات سيكُنَّ ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ لله ولرسوله، ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ واثقات مخلصات، ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مطيعات، ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ راجعات في كل أمورهن لله ولرسوله، ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ لله بجميع أصناف العبادة، ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائمات، ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ كُنَّ زوجات للغير قبل ذلك، ﴿وَأَبْكَارًا﴾ لم يتزوجن من قبل.

وهذه هي الصفات التي ينبغي أن يفطن لها المربون وأولياء الأمور في تربية المرأة المسلمة.

وبعد ذكر هذه الصفات الطيبة للمرأة المسلمة: يهيب الله بالمؤمنين أن ينتبهوا إليها، وأن يربُّوا بيوتهم عليها، إذ يقول الحق سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ وذلك: بتركهم المعاصي، وفعلكم الطاعات، ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ أي: وأمروا أهلكم بترك المعاصي، وفعل الطاعات، وتربيتهم علىٰ حب الله ورسوله ﷺ.

هذه النار ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، كما أن ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ يعذِّبون مَن فيها، وهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ به.

وهذه النار: هي التي يدخلها الكافرون، وهي التي: يقال لهم عند دخولها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ .

أي: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ لأنه لن يقبل منكم اعتذار، وأنتم اليوم تجزون بأعمالكم.

ولأن طريق الوقاية من النار هو التوبة: فإن الغفور الرحيم يطالب المؤمنين بالتوبة قائلًا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾

أي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ صادقة، ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ إن تبتم توبة نصوحًا ﴿أَن﴾ يقبل توبتكم، و ﴿يُكَفِّرَ﴾ أي: يمحو ﴿عَنكُمْ﴾ جزاء ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ التي كانت منكم ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وذلك: يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾، بل يكون ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ يُضيء طريقهم إلى جنات النعيم، وهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: يا ربنا أكمل علينا هذا النور وأدمه لنا، ولا تتركنا نتخبطُ في الظلمات، وامحُ عنا ما فرَطَ من الذنوب، إنك أنت القادر على كل شيء، من المغفرة والعقاب، والرحمة والعذاب.

وإذا كان رب العزة قد أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار وعذابها!!

وإذا كان تعالى ـ أيضًا ـ قد أمرهم بالتوبة تطهيرًا لهم من سيئاتهم التي قد تقودهم إلى

النار!! فإنَّ هناك فريقًا من الناس لا يعنيهم وقاية أنفسهم ولا أهليهم من عذاب النار، كما أنهم لا يتوبون عن معاصيهم، بل يُصِرُّون علىٰ اقترافها ويعيثون في الأرض فسادًا.

هؤلاء: يجب جهادهم حماية للأمة من إفسادهم، وللبلاد من تخريبهم، حيث يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾

أي: جاهدهم إعلامًا لهم بالدين، ومنعًا لهم من الفساد والإفساد ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ لا تتهاون معهم، فإن آمنوا، وتابوا فبها ونعمت، وإن لم يؤمنوا فلا تحزن عليهم، فقد اختاروا طريق السوء ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

صدر هذه السورة: كان في عتاب وتأديب اثنتين من زوجات رسول الله ﷺ، وقد كان درسًا لجميع المسلمين رجالًا ونساءً في ضرورة الالتزام بحدود الله وشرعه، إذْ في ذلك النجاة والفلاح، لذلك تختم السورة بضرب المثل الذي يوضِّح ويؤكِّد للدنيا كلها أن اللجوء إلىٰ الله والعمل بشرعه: هو حبل النجاة، ومَن ابتعد بَعُد عن مرضاته سبحانه، إذ يقول في مثل مَن ابتعد عن ربه:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

نعم، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يتعظ به المؤمنون، وينتفع به الغافلون وهو أن ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا﴾ زوجتين ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ نبيين رسولين، يدعوان الناس إلىٰ الإيمان بالله وتوحيده، ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ هاتان الزوجتان، ولم تؤمنا بما جاءا به، بالرغم من هذه المخالطة والمعاشرة، ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا﴾ كونهما زوجتين لنبيين ﴿مِنَ﴾ غضب ﴿ٱللَّهِ﴾ عليهما ﴿شَيْـًٔا﴾ حيث غضب عليهما، ﴿وَقِيلَ﴾ لهما ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ من الكافرين والمنافقين، وبذلك لم يستفيدا من القرب والقرابة للصالحين.

كما يقول جل وعلا في مثل مَن أرضىٰ ربه واحتمىٰ بجنابه:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

نعم ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ويسيرون على هديه، وذلك بامرأتين صالحتين هما:

الأولى: ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ الذي كان أطغى أهل الأرض ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ متبرأة مما هي فيه من بريق سلطان الظالم، ومتاع الدنيا وزخرفها، رافضة لكل ذلك طالبة من ربها ثلاثة أشياء:

﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أن يبني الله لها عنده بيتاً في الجنة، ويلاحظ أنَّها قد اختارت الجار قبل الدار؛ حيث اختارت رضوان الله قبل جنته، ولم تُفتن بما هي فيه، ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أن يخلصها الله من فرعون، ويبعد عنها نتائج عمله ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وأن يخلصها ـ كذلك ـ من قوم فرعون، بسبب ظلمهم وبغيهم.

الثانية: مريم ابنة عمران، أم عيسى عليه السلام.

وقد وصفها ربها بثلاث صفات في قوله سبحانه:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ﴾ حفظت ﴿فَرْجَهَا﴾ وصانته ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أي: بشرائعه، وقضائه وقدره، وكتبه التي أنزلها على رسله، و﴿كَانَتْ مِنَ﴾ القوم ﴿ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ الطائعين لربهم.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة المُلْك

الحمد لله وكفىٰ، وسلام علىٰ عباده الذين اصطفىٰ، وعلىٰ رأسهم خير البرية المصطفىٰ ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

هذه سورة الملك، التي كان رسول الله ﷺ يقرؤها كل ليلة، لا يترك ذلك في سفر ولا حضر، كما ورد ذلك في الأثر.

وهي سورة مكية، تبدأ بقوله عز وجل:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾

يعني: ﴿تَبَارَكَ﴾ الله وتعاظم عن صفات المخلوقين.

فهو سبحانه: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ﴾ وحده ﴿الْمُلْكُ﴾ كله، يتصرف فيه كيف يشاء، لا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ بقدرته ﴿الْمَوْتَ﴾ في الدنيا ﴿وَالْحَيَاةَ﴾ في الآخرة، وذلك ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: يختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وأكثر استعدادًا في حياته لما بعد الموت ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يفر منه عاص ولا ظالم ﴿الْغَفُورُ﴾ للتائبين عن ذنوبهم.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ بقدرته ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ على نحو بديع رائع، ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ أيها الإنسان ﴿فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ كله، ومن ذلك السموات ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ من اختلاف، أو تناقض، فإن كنت أيها الإنسان تشك في ذلك: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ أي: فانظر وعاين يا ابن آدم بعينك وأجهزتك إلى السماء ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: خلل فيما تراه؟

ولا تعاين مرة واحدة، بل كثير ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ ودقق النظر ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ كثيراً وسوف ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ ذليلًا كليلًا ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قد انقطع من الإعياء، ولم يجد عيبًا ولا خللًا، حقًّا إنها خلق الله:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾

نعم ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ التامة الخلق، البديعة الصنع ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي الكواكب المضيئة ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي: هذه الكواكب؛ حيث ينفصل عنها شهبًا، تكون ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ في الدنيا، ﴿و﴾ قد ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أي: أعددنا ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، ثم ذكر الحق أتباعهم من الإنس، فقال:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾

أي: ﴿و﴾ أعتدنا ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ من الجن والإنس عَذَابَ ﴿جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وبئست النار مرجعاً ومصيراً للكافرين، ﴿إِذَآ﴾ طرحوا، و ﴿أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ للعذاب ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ صوتًا منكرًا ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ تغلي بهم ومن فيها، كما أنها ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ تنقطع ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ على الكفار، و﴿كُلَّمَآ﴾ طرح، و ﴿أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ من هؤلاء الكفار ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ من الملائكة، قائلين لهم

توبيخًا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ رسول، يخوفكم من هذا العذاب؟

وهنا لا يستطيعون الإنكار: حيث ﴿قَالُوا﴾ لهم مجيبين: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ ودعانا للإيمان، وتوحيد الله ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ هم، و ﴿قُلْنَا﴾ في الدنيا لهم ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ مما تقولون ﴿مِن شَيْءٍ﴾، بل قلنا لهم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ بعيد عن الحق، ثم ندم الكفار، وصاروا يتحسرون!!

﴿وَقَالُوا﴾ لأنفسهم، وبعضهم البعض ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ سماع تدبر ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ ما كانوا يقولون ﴿مَا كُنَّا﴾ الآن ﴿فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: ما كنا نستوجب الخلود في جهنم.

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾

وهكذا، ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ حين لا ينفع الاعتراف!! وعلىٰ هذا: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: بعدًا لهم من رحمة الله.

ولمَّا ذكر الله وعيد الكفار، وعذابهم: ذكر وعده للمؤمنين، وجزاءهم، فقال الحق سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾

يعني ﴿إِنَّ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ يخافونه، فيطيعونه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ كما يطيعونه علانية ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.

وبعد وعيد الكافرين بالعذاب، ووعد المؤمنين بالنعيم!!، ينبِّه المولىٰ سبحانه إلىٰ عدة أمور هامة:

أولًا: عِلْمه بكل شيء، خفيّه وجَليّه،إذ يقول المولىٰ عز وجل:

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾

أي: يستوي عنده علم السر والجهر؛ لأنه سبحانه ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كما أنه هو الذي خلق هذا الإنسان صاحب السر والجهر، ويعلم حقائق الأشياء ودقائقها.

الثاني: قدرته علىٰ بعث الخلائق، حيث يقول جل وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

أي: ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ بقدرته ﴿ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ سهلة للانتفاع بها، وأمركم بهذا الانتفاع قائلًا: ﴿فَٱمْشُوا۟﴾ أي: اسعوا بالعمل والاستدلال علىٰ قدرته ﴿فِى مَنَاكِبِهَا﴾ أي: جوانبها ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ﴾ سبحانه.

﴿و﴾ واعلموا أنه ﴿إِلَيْهِ﴾ وحده سبحانه القدرة علىٰ النُّشُورِ، وهو بعث الخلائق.

ثم بدأ ربنا عز وجل في تخويف الكفار المكذبين المعاندين، فقال لهم:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾

يعني ﴿ءَ﴾كفرتم، و ﴿أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ عذابه، سبحانه ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ التي تستقرون فوقها، وتعيشون عليها، ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ بهذا الخسف ﴿تَمُورُ﴾ بكم وتضطرب وتقع بكم! ثم زادهم تخويفًا فقال: ﴿أَمْ﴾ كفرتم، و﴿أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ عذابه، سبحانه ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ﴾ ريحًا ترميكم بالحجارة التي تحصبكم وتهلككم، فإذا وقع الخسف بكم، أو أرسلت الحجارة عليكم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ ساعتها ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: كيف يكون إنذاري وعاقبة مَن كفر وكذب به!!

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾

أي: كيف إنكاري وتعذيبي لهؤلاء الذين كذبوا مَن قبلهم؟

ثم نبَّه سبحانه علىٰ قدرته علىٰ الخسف بهم، وإرسال الحاصب عليهم بقوله:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

يلفت الله نظر الإنسان إلىٰ هذا المخلوق الضعيف، وهو الطير، وقد سخر له الله الجو، فأفاد به ليستدل بذلك علىٰ قدرته، فيؤمن به، وبالبعث، ويستعد لليوم الآخر بالعمل الصالح.

ولأن هؤلاء الكفار كانوا يمتنعون عن الإيمان، معتمدين علىٰ قوتهم بأموالهم وكثرة عددهم، فقد أبطل الله ذلك بقوله:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي﴾ تعتقدون أنه ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ يحميكم من عذاب الله علىٰ كفركم و ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ﴾ غير ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ سبحانه؟ خبروني عنه، لو كان!! إنه لا يكون؛ حيث لا وجود له مع قدرة الله، ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ﴾ بهذا الفهم ﴿إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ غرهم به الشيطان.

ولأن هؤلاء الكفار أيضًا كانوا يمتنعون عن الإيمان، معتمدين علىٰ أن أصنامهم ستجلب لهم الخير، وتدفع عنهم الضر، فقد أبطل الله عز وجل ذلك بقوله:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾

يعني ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي﴾ تعتقدون أنه ﴿يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ الرحمٰن ﴿رِزْقَهُ﴾ عنكم؟ خبروني عنه لو كان!! ﴿بَل لَّجُّوا﴾ وتمادوا كفرًا وعنادًا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ تكبر ﴿وَنُفُورٍ﴾ عن الحق.

وعلىٰ ذلك: فهؤلاء الكفرة، في غاية الضلال.. **صحيح**:

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

وهذا مثل يضربه الله للكافر الذي يتخبط في الظلمات، وللمؤمن الذي يمشي علىٰ هداية من الله، أيهما أهدى سبيلًا في الدنيا؟

وهما في الآخرة كذلك: الكافر يمشي علىٰ وجهه إلىٰ نار جهنم، والمؤمن يمشي منتصب القامة، إلىٰ دار النعيم.

وإذا كان الله تعالىٰ قد لفت نظر الكافر إلىٰ الطير مسخرات في جو السماء؛ ليستدل بذلك علىٰ قدرة الله، فيؤمن بقدرته: فإنه يلفت نظره هذه المرة إلى آيات في نفسه هو، ليستدل بذلك علىٰ قدرة الله، فيؤمن بقدرته، حيث يقول للنبي ﷺ:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المعاندين ﴿هُوَ﴾ الله القادر ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ خلقكم ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ آلات العلم، وهي ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ﴾ لتستدلوا بها علىٰ قدرته، ووحدانيته، فلم تفعلوا، ولم تشكروا، بل كنتم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، و ﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا ﴿هُوَ﴾ الله ربي القادر ﴿ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ نشركم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتعمروها عباد الله ﴿وَإِلَيْهِ﴾ في النهاية ﴿تُحْشَرُونَ﴾ فتحاسبون، وتجازون علىٰ الخير خيراً، وعلىٰ الشر بمثله.

هؤلاء: لا فائدة منهم، إنهم ينكرون البعث، ويستبعدونه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

نعم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاءً ﴿مَتَىٰ﴾ يكون ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾! البعث، الذي تعدوننا وتخوِّفوننا به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون!

يقول ربنا: أجبهم يا محمد:

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم: ليس العلم بموعده عندي ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بذلك ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وحده، وقد بلغتكم ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ لكم، أُبيِّن الشرائع، وأُخَوِّفكم علىٰ مخالفتها، عقابكم في يوم البعث ﴿مُّبِينٌ﴾ واضح البلاغ، وقد أديته.

هؤلاء الكفار يخبر عنهم ربنا عز وجل بقوله:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا﴾ قامت القيامة، و ﴿رَأَوْهُ﴾ أي: البعث والحشر، بعيونهم ﴿زُلْفَةً﴾ وقع سريعًا ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ اسودت ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ غمًا ونكدًا، ﴿وَقِيلَ﴾ لهم

زيادة في التوبيخ ﴿هَٰذَا﴾ هو البعث ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾ تستهزئون، و ﴿تَدَّعُونَ﴾ أنه لن يكون، قد جاء وبعثتم، خبروني ماذا تفعلون، وكيف تنجون من العذاب؟

يا محمد، يا كل داعية إلىٰ الله:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

أي: إنهم يتمنون موتك، وموت مَن معك من المؤمنين، ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ يعني: أخبروني ﴿إِنْ﴾ حقق الله ما تتمنون، و ﴿أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾ من المؤمنين ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ وأخرنا إلىٰ آجالنا، فلا دخل لهذا في نجاتكم من عذابه، وعلىٰ هذا ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ سوىٰ أن تؤمنوا، فآمنوا، وخلصوا أنفسكم من عذاب الله.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ سبحانه ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ﴾ في جميع أمورنا، وأمَّا أنتم فلم تؤمنوا به، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ﴾ نحن أو أنتم ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أخيرًا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائرًا في باطن الأرض، لا تستطيعون إخراجه ﴿فَمَن﴾ الذي ﴿يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ سهل لكم، تشربون منه، وتحيون عليه، غير الله ؟! يا قوم استعملوا عقولكم، لتعرفوا قدرة ربكم، فتؤمنوا به، وتنجون من عذابه.

* * *

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القلم

وتسمىٰ أيضًا: سورة (ن)، وهي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم بمكة المكرمة، وهي تبدأ بقوله سبحانه:

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾

هذا قسم من الله وجوابه، أقسم بـ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ علىٰ أن محمدًا ﷺ: ليس بمجنون، كما كان الكفار يقولون عليه، وعلىٰ أن له من الله أجرًا غير منقطع ولا منته، وعلىٰ أنه ﷺ علىٰ خلق عظيم.

ثم يعد ربنا محمدًا ﷺ، ويهدد أعداءه قائلًا:

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾

أي: فستعلم ويعلمون يا محمد، في الدنيا وفي يوم القيامة كذلك ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي: مَن منكم المجنون، هم أو أنت، وقطعاً هم؛ لأنهم ضلوا عن سبيل الله.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾

يعني: هو سبحانه أعلم بالمجانين، الذين ضلوا عن سبيله، وهو سبحانه أعلم بالمهتدين الذي اهتدوا بهداه، وفي الكلام تخويف للمكذبين، وبشارة للمؤمنين.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾

أي: كما أنعمنا عليك يا محمد، وأعطيناك الشرع المستقيم، والخلق العظيم ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث إنهم ﴿وَدُّوا۟﴾ ورغبوا وتمنوا ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ تلين لهم، وتتخلى عن شيء من دعوتك ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ يلينون لك ولا يعادونك بشدة.

نعم، لا تطعهم؛ فإن صاحب الدعوة علىٰ الحق، لا ينبغي أن يتخلىٰ عنه أبدًا.

ثم ينهىٰ ربنا حبيبه عن طاعة الموصوفين بمجموعات من الصفات التي بيَّنها له في قوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾

أي: كما أنعمنا عليك يا محمد، وأعطيناك الشرع المستقيم، والخلق العظيم ﴿لَا تُطِعْ كُلَّ﴾ مَن اتصف بهذه الصفات، وهي:

﴿حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف، بالباطل.

﴿مَّهِينٍ﴾ حقير في الرأي والتمييز.

﴿هَمَّازٍ﴾ عيَّاب للغير، مغتاب للناس.

﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ نَقَّال للحديث السيئ بين الناس؛ لإفسادهم.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ بخيل بماله عن أداء الحقوق.

﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: ظالم كثير الظلم.

﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام، وارتكاب المحرمات.

﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ وفوق ما مرَّ فهو: غليظ، جاف، قاسي القلب.

﴿زَنِيمٍ﴾ فاحش لئيم، وقيل: دَعِيّ ينتسب إلىٰ غير أهله.

لا تطع مَن كانت هذه صفاته، حيث إنه:

مغرور ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ فقد اغتر بماله وولده، ونسي أن هذا من فضل الله، واستدراجه له؛ ليشكر أو يكفر، وقد كفر، ولذلك ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ وهي القرآن ﴿قَالَ﴾ عنها إنها ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: خرافات وأباطيل المتقدمين.

ومَن كانت هذه صفاته:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾

أي: سنعلِّمه بعلامة أهل النار، وهي سواد وجهه يوم القيامة، وهذا كناية عن عذابه عذابًا شديدًا في نار جهنم.

ثم يضرب الله المثل علىٰ امتحانه لهؤلاء المعاندين بالنعم، فيقول سبحانه:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾

يعني اختبرنا كفار مكة بكثرة النعم، كما اختبرنا أصحاب الجنة، أي: أصحاب البستان، بنعمنا عليهم.

ونلاحظ: أن الاختبار بالنعم مستمر لجميع الناس إلىٰ يوم القيامة، يرسب فيه مَن يرسب؛ حيث يكفر ولا يشكر، وينجح فيه مَن ينجح، نسألك اللهم أن تجعلنا من الشاكرين الناجحين.. اللهم آمين.

وهذا المثل كما تذكره الآيات الكريمة، هو بدءاً من قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾

أصحاب الجنة هؤلاء: كانوا قومًا بخلاء، وذات عام طابت ثمار بستانهم، وأرادوا جمعها، ولكن في وقت لا يراهم فيه فقير، ولا صاحب حاجة؛ حتىٰ لا يعطوه شيئًا.

﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: يجمعون ثمارها في الصباح الباكر، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولم يقولوا إن شاء الله، وصاروا يفكرون، ويدبرون!! ولكن: ما قدَّر الله يكون، لا ما يشاؤون ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ آصابتها آفة عاجلة ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ قبل أن يصلوا إليها ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ أي: هلكت ثمارها.

هذه قصتهم باختصار، أما تفاصيل هذه الكارثة التي حلت بهم:

يقول المولىٰ: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ وهم يقولون لبعضهم البعض ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ جامعين لثمره، ﴿فَانطَلَقُوا﴾ إلىٰ بستانهم ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ بقولهم: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ فيأخذ منا ما لا نحب أن نعطيه، ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ قوة وتصميم علىٰ منع الفقراء ﴿قَادِرِينَ﴾ ووصلوا إليها، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ قد هلك ثمرها، وضاع ما فيها ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ تائهون عن بستاننا، فليس هو هذا، ولكنهم تأملوا فيها، وحاولوا التأكيد: فعرفوا أنها هي جنتهم، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ تعساء ﴿مَحْرُومُونَ﴾ من ثمارها وخيرها، وطال بينهم النقاش، وهنا ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم وأعقلهم مُذَكِّراً لهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ حين عزمتم علىٰ منع حق الله من ثمارها ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تذكرون الله، وتبتعدون عن خبث نيتكم، وتعقدوا العزم علىٰ إعطاء الفقراء حقوقهم؟!! ﴿قَالُوا﴾ له ـ ولكن بعد فوات الأوان ـ حقًّا ما كنت تقول، وذكروا الله قائلين: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ثم صاروا ـ فيما بينهم ـ يتعاتبون، ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ وأخيرًا: اعترفوا بذنبهم؛ حيث ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾، ثم توجهوا لربهم تائبين قائلين: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ وبهذا انتهت هذه القصة.

يقول الحكيم الخبير:

﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ﴾ أي: هذه النهاية هي عقوبة الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ﴾ وأشق على الكافرين والعصاة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنهم لا يعلمون الذين ماتوا علىٰ كفرهم ولم يؤمنوا، والذين ماتوا علىٰ معاصيهم ولم يتوبوا، ولذلك يفعلون ما يؤدي بهم إلىٰ هذا العذاب.

ثم يبيِّن الله جزاء المتقين، فيقول جل وعلا:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين أطاعوا ربهم لهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في دار البقاء ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ التي لا انقضاء لها ولا انتهاء، بخلاف نعيم الدنيا الفاني.

وهكذا كان عدل الله سبحانه وتعالىٰ: العذاب للعصاة والكافرين، والنعيم للمؤمنين المتقين.. اللهم اجعلنا منهم برحمة منك يا أرحم الراحمين.

وإلَّا: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

فهل يعقل أن يكون المطيع كالعاصي؟ أبدًا لا يكون ذلك نهائيًا.

إذن ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بذلك، وتفهمون ذلك، وتظنون أن هذا يكون، وتفعلون أيها العصاة ما تريدون، ولا تعبؤون بما تعملون؛ ظنًا منكم أن الكل متساوون.

إن هذه التسوية التي تظنونها: لن تكون.

أيها العصاة، علام اعتمدتم في فهمكم هذا؟

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

هل عندكم ﴿كِتَٰبٌ﴾ منزل من السماء ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ وتقرؤون؟

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ وبذلك: يكون اعتمادكم في فهمكم هذه التسوية بين المسلم والمجرم علىٰ كتاب منزَّل من السماء!! طبعًا ليس لكم ذلك.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

أي: هل أعطيناكم عهودًا أكدناها وأقسمنا عليها، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وفيها ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ به لأنفسكم، مما تشتهون؟

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ العهد والميثاق إن كان هو به ﴿زَعِيمٌ﴾ وضامن لكم ذلك؟ طبعًا ليس لكم عهود بذلك، ولا عندكم زعيم متكفل بهذا.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هل لهم شركاء في هذا التساوي بين العاصي والمطيع الذي يدعونه؟

إذا كان لهم ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ هؤلاء ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم هذه،وفهمهم هذا.

وذلك: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ من شدة الأمر، وصعوبة الموقف، وهول يوم القيامة، ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ في هذا اليوم ﴿إِلَى السُّجُودِ﴾ توبيخًا لهم على تركهم السجود في الدنيا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ حيث تصير ظهورهم جامدة لا تلين لهم.

بل تكون ﴿خَاشِعَةً﴾ ذليلة ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ لا يرفعونها ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ وهوان، عجيب لماذا أوقفوا أنفسهم هذا الموقف ﴿وَقَدْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ فامتنعوا.

لماذا امتنعوا عن السجود؛ فأوقفوا أنفسهم هذا الموقف المخزي في يوم القيامة؟ إنهم كذَّبوا بالقرآن، لذلك يقول العزيز الجبار:

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَذَرْنِي﴾ اتركني يا محمد، ويا كل مسلم ﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ وهو القرآن، ولا تهتم به، ولا تنشغل بمفاهيمه، حيث إنا ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ بالصحة، والغنى، والجاه، والكثير من متاع الدنيا الزائل ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إنه استدراج لهم؛ حيث لا يشكرون الله على هذه النعم.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أُمهلهم، وأُأَخِّر عذابهم!! ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إِنَّ

﴿كَيْدِي﴾ عذابي ﴿مَتِينٌ﴾ قوي شديد لمن خالف أمري، وكذب رسلي، وأصر علىٰ معصيتي.

ولكن ما السبب في إصرارهم علىٰ هذا التكذيب؟

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

هل ﴿تَسْـَٔلُهُمْ﴾ علىٰ تبليغ الرسالة إليهم ﴿أَجْرًا﴾؟ وعلىٰ ذلك ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ يدفعونه لك مثقلون، ومتعبون، ولذلك: لا يؤمنون؟

﴿أَمْ﴾ أن ﴿عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ وهو اللوح المحفوظ، الذي فيه الغيب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يقولون، وما به يحكمون؟ طبعًا لا هذا، ولا ذاك، إذن فهم متعنتون.

وعلىٰ ذلك، وما دمت لم تؤمر بقتالهم حتىٰ الآن:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾

أي: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم، وتأخير العذاب عنهم، ونصرتك عليهم، ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ تغضب عليهم، وتتصرف بغير إذن منا، كما فعل صاحب الحوت، وهو يونس عليه السلام، حتىٰ لا يصيبك مثل ما أصابه: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ ربه ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مهموم مغموم.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بإجابة دعائه، وقبول عذره: ﴿لَنُبِذَ﴾ من بطن الحوت ﴿بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ملام، لكنه رُحِم من ربه، فنُبِذ غير مذموم ﴿فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ المقربين.

ومن المواقف التي تحتاج منك إلىٰ الصبر عليهم: شدة عداوتهم لك، وقولهم عنك إنك لمجنون.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾

أي: أوشك ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ يؤذونك يا محمد بأبصارهم حسدًا؛

وذلك ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ منك وهو القرآن، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أيضًا عليك: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ فلا تهتم بهم، واصبر على أذاهم هذا!! فإنا نحميك منهم، ونعصمك من أذاهم.

لقد نظروا إليك باستخفاف وعداوة... من أجل القرآن!! وقالوا عليك أيضًا: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ من أجل القرآن!!

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

أي: ما القرآن الذي قالوا عليك ذلك من أجله ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وموعظة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ كلهم من الجن والإنس.

ولذلك: كيف يُحكَم بالجنون على مَن جاء بمثله؟

* * *

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحاقة

هي سورة مكية، تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾

مطلع قوي، ويؤثر في الكيان كله.

و ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة، ومعناه: الواجبة، أي: الواجبة الوقوع.

وكأن سائلًا يسأل: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟ فيكون الجواب: تفخيم بعد تفخيم، وتعظيم لشأن هذا اليوم بعد تعظيم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾، أي: ما أعلمك بها، إنها شيء لا تبلغه المفاهيم، ولا تحيط به الأوهام، إنها وما فيها فوق كل تصور وإدراك، ومادام الأمر كذلك: فلا تنشغل بماهيتها، بل آمن بها، واجعل شغلك الشاغل هو الاستعداد لها بالعمل الصالح.

وإياك والإهمال لها، أو التكذيب بها!!

حيث: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾

نعم ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ قوم صالح عليه السلام ﴿وَعَادٌۢ﴾ قوم هود عليه السلام ﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾ وهي الحاقة، أي: يوم القيامة، التي تقرع الناس وتفزعهم بأهوالها.

ماذا حدث لهم، عندما كذبوا بها، ولم يستعدوا بالعمل الصالح لها؟

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾

أي: لمَّا كذبوا بها أهلكهم الله تعالىٰ ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ وهي: الصيحة التي أسكتتهم، والزلزلة التي دمرتهم.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾

أي: لمَّا كذبت ﴿عَادٌ﴾ بالحاقة، وهي القارعة، القيامة: أهلكها الله ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت، شديدة البرودة ﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديدة الهبوب، مدمرة لا رحمة فيها.

وقد ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: متتابعات، ﴿فَـ﴾كنت ﴿تَرَى ٱلْقَوْمَ﴾ وهم عاد ﴿فِيهَا﴾ في: هذه الكارثة التي حلت بهم لتكذيبهم ﴿صَرْعَىٰ﴾ هالكين، مطروحين أرضًا ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي أصول شجر نخل فارغة ساقطة!!

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾؟ أبدًا لقد هلكوا جميعًا، أُبيدوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد. **وأيضًا:**

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾

أي: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ﴾ مصر ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ من الأمم الكافرة ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ وهي أهل قرىٰ قوم لوط، جاء كل هؤلاء: بالفعلة الخاطئة!! ما هذه الفعلة الخاطئة التي فعلوها؟ يقول ربنا سبحانه ﴿فَعَصَوْا۟﴾ أي: كل أمة منهم عصت ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ ماذا كانت نتيجة عصيانهم هذا؟ يقول المولىٰ: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي أهلكهم إهلاكة شديدة، تناسب قبح أفعالهم ومعاصيهم.

وكذلك: مع قوم نوح عليه السلام.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾

أي: لمَّا كذب قوم نوح نوحًا عليه السلام، ودعا ربه قائلًا: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾.

وأجاب الله دعاءه، حيث يقول: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢] وكان الفيضان!!

و ﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ على كل شيء، فكان إنعام الله على المؤمنين؛ حيث يقول ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي: آباءكم ﴿فِى﴾ هذه السفينة ﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾ وكان الإهلاك للمكذبين، والإنجاء للمؤمنين ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ باقية على مرِّ الزمان ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فتؤمن بالله، ولا تكذب الرسل، وتستعد بالعمل الصالح لليوم الآخر.

نعم لليوم الآخر الذي هو يوم القيامة، الذي هو الحاقة.

ماذا يحدث في يوم القيامة..؟ يقول الله تعالى:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾

يا منجي يا رب من هذه الأهوال الفظيعة!!

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ النفخة الثانية، وهي نفخة البعث، ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ما أشد صوتها، ﴿وَحُمِلَتِ﴾ وقعت ﴿ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ فصارتا كثيبًا مهيلًا، وتبدلت الأرض غير الأرض التي كانت، ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة، ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ وتصدعت ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة ساقطة، بعد أن كانت سقفًا محفوظًا متماسكًا، قويًّا.

﴿و﴾ يكون ﴿ٱلْمَلَكُ﴾ أي: الملائكة ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ أي: طرفها وأطرافها، ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ أي: فوق هؤلاء الملائكة ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ من الملائكة.

أين نحن والناس حينئذ؟

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾

نعم ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ للسؤال والحساب؛ حيث ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ﴾ على العباد ﴿خَافِيَةٌ﴾ من أموركم وأفعالكم التي كانت منكم في الدنيا.

إذن هذا يوم الحساب والجزاء!!

ما حال المؤمنين يومئذ؟ يقول رب العزة عنهم:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاق�ٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

إنهم في سعادة وسرور، حيث إن الواحد منهم بعد أن ﴿أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وصار من أهل اليمين، يقول لأصحابه: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ لتعرفوا كرم الله بي، وإنعامه عليَّ، وتبديله السيئات حسنات، أتعرفون لماذا هذا؟.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ علمت وأنا في الدنيا ﴿أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ كما أخبر رسول الله، وآمنت بذلك، وبذلت الجهد في العمل الصالح؛ استعدادًا لهذا اليوم.

وهكذا: صار حال المؤمن ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ يقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ وقدمتم في الأيام التي سبقت، وأنتم في الدنيا.

وما حال الكافرين يومئذ؟ يقول رب العزة عنهم:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾

إنهم في بؤس وشقاء، حيث إن الواحد منهم بعد أن ﴿أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ ورأى ما فيه من المخازي والفضائح والسيئات يتحسر ويندم ندمًا لا يفيد، ﴿فَيَقُولُ﴾ محاولًا

إخفاء كتابه ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۞ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ ولكن يفتضح أمره وأمر كتابه علىٰ رؤوس الخلائق!! فيقول: ﴿يَٰلَيۡتَهَا﴾ أي: الميتة التي مِتُّها ﴿كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ ولم أبعث بعدها، ولكنه الآن بعث، وانتشرت فضائحه، وصار يعاني آلام العذاب!!

فيقول متحسرًا: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾ لم ينفعني كل ما جمعته في الدنيا، مع كفري وعصياني، كما أنه ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ ضاع الجاه والسلطان والنفوذ، وصرت وحيدًا ذليلًا معذبًا.

وهنا يقال لملائكة العذاب:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ۝٣٢﴾

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أي: خذوه بعنف، مقيد اليدين إلىٰ العنق ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أدخلوه وأغمروه فيها مرة ثم أعيدوه واربطوه ﴿فِي سِلۡسِلَةٖ﴾ يربط فيها مَن هم علىٰ شاكلته ﴿ذَرۡعُهَا﴾ طولها ﴿سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾ وهو مقدار لا يعلمه إلَّا الله، ﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾ أدخلوه في هذه السلسلة، ثم ألقوا به في النار.

لمَ كل هذا؟

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣٤ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ۝٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾

يعني: سبب كل هذا العذاب، أنه كان متمرِّدًا علىٰ الله، متكبِّرًا علىٰ الخلق، حيث ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فلم يطعه، ويلتزم بشرعه، كما أنه كان ﴿لَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ بخيلًا بمال الله علىٰ خلق الله، لا يحسن إلىٰ الناس، وبذلك: أضاع حقوق العباد عليه، وحقوق رب العباد أيضًا، ولذلك: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا﴾ صديق ﴿حَمِيمٞ﴾ يدفع عنه شيئًا من هذا العذاب.

﴿و﴾ كذلك ﴿لَا طَعَامٌ﴾ له هنا ﴿إِلَّا﴾ طعام ﴿مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ وهو ما يسيل من دماء وصديد أهل النار.

هذا الطعام السيئ ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ وهو منهم.

أيها الناس: هل عرفتم أن الحاقة، وهي القيامة حق!!؟ وهل آمنتم باليوم الآخر!!؟

فهل تستعدون له بالإيمان والعمل الصالح؟!! وهل تعظِّمون القرآن الكريم الذي جاءت فيه أخبار هذا اليوم؟!!

حيث يقول ربنا سبحانه عنه:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾

يقسم ربنا سبحانه وتعالىٰ لخلقه بما يشاهدون، وبما لا يشاهدون من ملكوت الله علىٰ أنَّ القرآن كلامه سبحانه، ووحيه إلىٰ ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وهو محمد ﷺ.

وأنَّ هذا القرآن ليس بقول شاعر، ولا بقول كاهن.

ولكنَّه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ علىٰ رسول الله بمنهج الله ليبلغه للناس.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يعني ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ محمد وادّعىٰ ﴿عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ التي لم نوحِ بها إليه، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ عقابًا شديدًا علىٰ ذلك ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ﴾ حينئذ ﴿ٱلْوَتِينَ﴾ وهي شرايين القلب ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ في هذه الحالة ﴿عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ ومانعين ما نفعله به.

ولكنه بفضل الله: لم يتقوَّل علينا، ولم يفعل ما تزعمون عليه، والقرآن الذي بلَّغكم إياه، هو من عند الله.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ في الحقيقة ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يُرضون ربهم، وهي تذكرة نافعة للدنيا كلها لا ينكرها إلَّا جاحد، ولا ينتفع بها إلَّا مؤمن.

﴿و﴾ مع ذلك ﴿إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم﴾ أيها البشر ﴿مُّكَذِّبِينَ﴾ بها ولهًا وعنادًا.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: هذا التكذيب والعناد ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يوم القيامة، خاصة إذا رأوا نعيم المصدِّقين به.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الذي يكذبون به ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لذلك: ﴿فَسَبِّحْ﴾ يا محمد، ويا كل مؤمن ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ تنزيهًا له سبحانه عما يقولون من تكذيب القرآن، وعدم الإيمان بوحدانية الله تبارك وتعالى.

* * *

obeikandl.com